بدنة معلومة وبرجا معينا يخربونه ودخل الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء وكان بلدا خفيفا
على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا في سكنه فلحق الناس على خرابه حزن عظيم وعظم عويل
اهل البلد عليه لفراق اوطانهم وشرعوا في بيع ما لا يقدرون على حمله فباعوا ما يساوي عشرة
دراهم بدرهم واحد وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد واختبط البلد وخرج الناس
باهلهم واولادهم الى الخيم وتشتتوا وذهب قوم الى مصر وقوم الى الشام وجرت عليهم امور عظيمة
واجتهد السلطان واولاده في خراب البلد كيلا يسمع العدو فيسرع اليه ولا يتمكن من اخرابه و
بات الناس على اصعب حال واشد تعب مما قاسوه في خرابها وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك
العادل من اخبر ان الفرنج تحدث معه في الصلح وطلبوا جميع البلاد الساحلية فرأى ان ذلك مصلحة
لما علم من نفس الناس من الضجر من القتال وكثرة ما عليهم من الديون وكتب اليه يأذن له في ذلك
وفوض الامر الى رايه واصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان وهو مصر على الخراب واستعمل الناس
عليه وحثهم على العجلة فيه واباحهم ما في الهري الذي كان مدخرا للميرة فامن هجوم الفرنج والعجز
عن نقله وامر باحراق البلد فاضرمت النيران في بيوته وكان سورها عظيما ولم يزل الخراب يعمل في البلد
الى سلخ شعبان من السنة واصبح يوم الاثنين مستهل شهر رمضان امر ولده الملك الافضل ان يباشر
ذلك بنفسه وخواصه ولقد رايته يحمل الخشب بنفسه لاجل الاحراق وفي يوم الاربعاء ثالث شهر رمضان
اتى الى الرملة واشرف عليها وامر باحراقها واخراب قلعة الرملة ففعل ذلك وفي يوم السبت ثالث عشر
رمضان تاخر السلطان بالعسكر الى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير ما بقي لهم لاحضار ما يحتاجون
اليه ودار السلطان حول النطرون وهي قلعة منيعة فامر باخرابها وشرع الناس في ذلك ثم ذكر
ابن شداد بعد هذا ان الانكتار وهو من اكابر ملوك الفرنج سير رسوله الى الملك العادل يطلب الاجتماع
به فاجابه الى ذلك واجتمع يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحادثا معظم ذلك النهار و
انفصلا عن مودة اكيدة والتمس الانكتار من العادل ان يسال السلطان ان يجتمع به فذكر العادل ذلك
للسلطان فاستشار اكابر دولته في ذلك ووقع الاتفاق على انه اذا جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع
بعد ذلك ثم وصل رسول الانكتار وقال ان الملك يقول اني احب صداقتك ومودتك وانك تذكر
انك اعطيت هذه البلاد الساحلية لاخيك واريد ان تكون حكما بيني وبينه وتقسم البلاد بيني وبينه
ولا بد ان تكون لنا علقة بالقدس واطال الحديث في ذلك فاجابه السلطان بوعد جميل واذن له
في العود في الحال وتاثر لذلك تاثرا عظيما قال ابن شداد وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان متى
صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر وتقوى الفرنج
والمصلحة ان لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل او ياتينا الموت هذا كان رايه وانما غلب
على الصلح قال ابن شداد ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح واطال القول في ذلك وكيفية الاجابة
اليه وجرت بعد ذلك وقعات اضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها وحاصل الامر انه انبرم الصلح
بينهم وكانت الايمان يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ونادى
المنادي بانتظام الصلح وان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة في الامن والمسالمة فمن شاء من كل
طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور وكان يوما مشهودا نال
الطائفتين فيه من المسرة ما لا يعلمه الا الله تعالى وقد علم الله تعالى ان الصلح لم يكن عن مرضاته وايثاره

لكنه راى المصلحة في الصلح لسامة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة وكان مصلحة في علم الله
تعالى فانه اتفقت وفاته بعد الصلح فلو اتفق ذلك في اثناء وقعاته كان الاسلام على خطر ثم
اعطى العساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستورا فساروا منه وعزم على
الحج لما فرغ باله من هذه الجهة وتردد المسلمون الى بلادهم وجاؤوا الى بلاد المسلمين وحملت
البضائع والمتاجر الى البلاد وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس وتوجه السلطان الى القدس
ليتفقد احوالها واحوال الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى
دمشق واقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتاهب للمسير الى الديار
المصرية وانقطع شوقه عن الحج ولم يزل كذلك الى ان صح عنده مسير مركب الانكتار متوجها
الى بلاده في مستهل شوال فعند ذلك قوي عزمه على ان يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية
الى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها اياما قلائل ويعود الى القدس ومنه الى الديار المصرية قال شيخنا
ابن شداد وامرني بالمقام في القدس الى حين عوده لعمارة مارستان انشاه وتكميل المدرسة التي انشاها
وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ولما فرغ من تفقد
احوال القلاع وازاحة خللها دخل دمشق بكرة يوم الاربعاء سادس عشر شوال وفيها اولاده الملك
الافضل والملك الظاهر والملك الظافر ومظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر واولاده الصغار وكان يحب
البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه وحضروا
عنده وبلوا شوقهم منه وانشده الشعراء ولم يتخلف احد من الخاص والعام واقام ينشر جناح عدله
ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل
الملك الافضل دعوة للملك الظاهر لانه لما وصل الى دمشق وبلغه حركة السلطان اقام بها ليتملى بالنظر
اليه ثانيا وكان نفسه كانت احست بدنو اجله فودعه في تلك الدفعة مرارا متعددة ولما عمل
الملك الافضل الدعوة اظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته وكانه اراد بذلك مجازاته عما خدمه
به حين وصل الى بلده وحضر الدعوة المذكورة ارباب الدنيا والاخرة وسال السلطان الحضور فحضر
جبرا لقلبه وكان يوما مشهودا على ما بلغني ولما تفقد الملك العادل احوال الكرك واصلح ما قصد اصلاحه
منه سار قاصدا للبلاد الفراتية فوصل الى دمشق في يوم الاربعاء سابع عشر ذي القعدة وخرج
السلطان الى لقائه واقام يتصيد حوالي غباغب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعا يتصيدان وكان
دخولهما الى دمشق اخر نهار يوم الاحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واقام السلطان
بدمشق يتصيد هو واخوه واولاده ويتفرجون في اراضي دمشق ومواطن الصبا وكان وجد راحة
مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لاولاده ومراتع نزهه و
نسي عزمه الى مصر وعرض له امور اخر وعزمات غير ما تقدم قال ابن شداد ووصلني كتابه الى
القدس يستدعيني لخدمته وكان شتاء شديدا ووحلا عظيما فخرجت من القدس في يوم الجمعة
الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول الى دمشق في يوم الثلثاء ثاني
عشر صفر من السنة وركب السلطان لملتقى الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر وكان ذلك اخر
ركوبه ولما كان ليلة السبت وجد كسلا عظيما ولما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية
وكانت في باطنه اكثر منها في ظاهره فاصبح يوم السبت متكسلا عليه اثر الحمى ولم يظهر ذلك